كلمة في المنهاج (2)

ميزاننا وموازينهم

بقلم الشيخ؛ أبي محمد المقدسي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

قال تعالى: {**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**}

فالميزان جنبا إلى جنب مع كتاب الله لا يستغنى عنه بحال في تقييم الناس والطوائف والملل والنحل والجماعات..

وإذا اختل الميزان اختلت معه ولا بد التصورات والحسابات ومن ثم الأحكام فالعمل والسلوك والمنهاج..

وواقع المنتسبين في مناهجهم ودعواتهم اليوم إلى الإسلام؛ أكبر شاهد ودليل على هذه الحقيقة..

فموازينهم هي التي تحدد مناهجهم وسلوكياتهم التي تنبني على حكمهم على الأفراد والأنظمة والجماعات.

فبعضهم يزن بميزان الوطنية؛ فتراه يؤاخي في ظل ذالك الملاحدة والمشركين والكفرة والباطنيين.. ولم لا؟ أليسوا إخوانه في النضال الوطني!!؟

وبعضهم يزن الأمور بميزان المصالح والاستحسانات فكل وسيلة تؤدي به إلى الوصول إلى غايته ــ ولو كانت من أنجس الوسائل وأخبثها وأنتنها _ فهي الوسيلة المستحسنة النظيفة عنده وسالكوها هم أولوا الألباب وأصحاب العقول المستنيرة، ومهملوها هم الجهلة أصحاب العقول المنغلقة وأولوا الأفكار الضيقة الضحلة!!

وقوم يزنوك بمقدار ماينالوه منك من مصالح دنيوية، فبهذا المعيار تقرب منهم وتبعد!!

وبعضهم يأخذ جانبا من الدين استحسنه واستسهله فيجعله ميزانه الحساس..

فقوم يزنوك بعـدد أيـام السنة الـتي تخـرج فيهـا معهم للدعوة إلى الله، حسب ما ارتآوه هم من معـاني الخـروج حصروا فيه آيات وأحاديث الجهاد، فإن حققته كما يضبطه ميزانهم فأنت حـبيبهم، وإن أهملتـه فلسـت بـذاك الرجـل ولو خرجت بسنانك وأسنانك ودمك على كل طاغوت..

وبعضهم يزنـك بمـدى معرفتـك وفهمـك لبـاب الأسـماء والصفات أو توحيد المعرفة والإثبـات الـذي لم يكن يخفى على إبليس أو توحيـد الربوبيـة الـذي لم يكن يخفى على كفـار قـريش؛ فهـذه هي العقيـدة السـليمة عنـدهم وهي الفهم السلفي والطريقة الأثرية ووو.. ومن ثم فمن أخطأ أو عثر في شيء من فروعها فهو البدعي المـذموم الـذي لا تتسع موازينهم لإعذاره ولو حقق التوحيد الذي بعث من أجله الرسل كافة وجاهد في سـبيل عـراه الـوثقى وقاتـل وقتل..

ومن أظهر معرفته فهو عنـدهم السـلفي القُح بـل هـو من خلاصة أهـل الحـديث ورؤوس الطائفـة المنصـورة ولا يضره أو يـنزع عنـه هـذه الأوصـاف؛ حـتى لـو هـدم عـرى الاسلام الوثقى وثلم أصل دعوة الأنبياء والمرسلين وزبدة توحيد الألوهيـة وكـان من أطغى الطـواغيت فسـيبقى في موازينهم إمام المسلمين وأمير المؤمـنين؛ مـا دام يسـرد ذلك المعتقد ويعرفه!!

وبعضـهم يزنـك بمـدى براءتـك ممن كَفّـر ولاة أمـورهم الطواغيت ولو كان من خلاصة الموحدين وبمدى حربك له وتشنيعك عليه، أوبمدى ولائك أو جدالك عن ولاة أمـورهم الكفـرة الفجـرة الـذين زكـاهم وبـايعهم علمـاؤه ــ علمـاء السلاطين ـ وبمدى انبطاحك لهم وعدم تفكـيرك بـالخروج عليهم ولــو بـالكلام.. فرجحــان ذلــك عنــدك يجعلــك من المرضـــي عنهم وأصـــحاب الأفهـــام المســـتنيرة؛ الـــذين يسـتحقون كـل دعم وعـون ونصـرة وإسـناد.. وإن اختـل شـيء منـه فـأنت البـدعي الخـبيث!! عـدو العلمـاء وآكـل لحـومهم المسـمومة!! بـل أنت خـارجي من شـر الخلـق والخليقة وكلب من كلاب النار!!

وبعضهم اتخذ مـيزانين لا ميزانـا واحـدا؛ ميزانـا خصصـه لنفسه يراعي مصالحه ويزن لصالحه؛ فالأعذار فيه جاهزة ولو للموبقات والشركيات!! والمكاييـل فيـه مفصـلة على مقاس مصالحه وأمانيه، وهو ذات الميزان الذي يـزن فيـه أحبابه وخلانـه وجماعتـه، ومـيزان آخـر خصصـه لخصـومه

ومنافسيه؛ المكاييل والأوزان فيه دقيقة حساسـة لا تفلت منها شاردة أو واردة، هذا إن لم تطغى فتجعـل من الحبـة قبة.. ولسان حالها يقول:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط توري المساويا

يقـول تعـالى: {**ويـل للمطففين * الـذين إذا اكتالوا على النـاس يسـتوفون * وإذا كـالوهم أو وزنـــوهم يخســـرون * ألا يظن أولئـــك أنهم مبعورثون * ليوم عظيم ***}

قال أبو هريرة رضي الله عنـه لمـا سـمع أحـد الصـحابة يقرأ بهـا في الصـلاة: فكنت أقـول في صـلاتي (ويـل لأبي فلان! له مكيالان إذا اكتال اكتال بـالوافي، وإذا كـال كـال بالناقص!) رواه أحمد والحاكم.

هذه موازينهم..

أما أهل التوحيد وأنصاره ودعاتـه وحواريـوه.. فمـيزانهم واحـد لا يتغـير أويتبـدل، لم يختـاروه بـأهوائهم أويُقـدّروا مكاييله بمصالحهم واستحساناتهم، بل أنزله الله إليهم مـع الكتاب، وضبط لهم رسوله صلى الله عليه وسـلم معيـاره ومكياله، فلا يخطيء ولا يزل من راعاه وضبط به موازينـه أبدا..

ذلك مـيزان (لا إلـه إلا اللـه) مـيزان التوحيـد، الـذي من حققه فهو القريب منا والحبيب إلينا والنـاجي من الهلاك.. والمعذور فيما أخطأ به من عثرات يغمرها تحقيقه للتوحيد الذي هو أحـق حقـوق اللـه على العبيـد، ويغفرهـا اجتنابـه للشرك والتنديـد مـا دامت دونـه، فـأنوار التوحيـد تطفيء نيران المعاصي كلها حاشا ما يضاده ويناقضه من الشرك؛ كما أخبر الرب جل وعلا: {**إن الله لا يغفر أن يشـرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**}.

وفي الحديث الذي يرويـه الإمـام أحمـد والترمـذي وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو قال قـال رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم: (يصاح برجل من أمتي يوم القيامـة على رءوس الخلائـق. فينشـر لـه تسـعة وتسـعون سـجلاً، كـل سجل مد البصر. ثم يقول الله عز وجل: هل تنكر من هذا شــيئاً؟ فيقــول: لا يـــا رب، فيقــول: أظلمتــك كتبــتي

الحــافظون؟ ثم يقــول: ألــك عن ذلــك حســنة؟ فيهــاب الرجل، فيقول: لا. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنات. وإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قال، فيقول: يا رب مــا هذه البطاقــة مــع هــذه الســجلات؟ فيقــول: إنــك لا تظلم. فتوضع الســجلات في كفــة والبطاقــة في كفــة. فطاشــت السجلات، وثقلت البطاقة).

فهكذا ميزاننا أهل التوحيد وأنصاره؛ وبهذا نزن الكتابات والمقــالات والكتــاب والعلمــاء والنــاس أجمعين.. لا نقــدم على تحقيق كلمة التوحيد واجتناب الشــرك والتنديــد شــيئا من الأشياء..

فمن حقق ذلك وقام به نال الزلفى عندنا، وله العذر كما هي طريقة أهل السنة فيما أخطأ فيه أو تأوله فيما هو دون ذلك، ولا يمنع هذا من بيان خطئه أو التنبيه على زلــله؛ نصحا لله ولدينه وللمسلمين.

ومن ثلم هذا الأصل الأصيل أو هدم عراه الوثقى فهــو المبعد عندنا المؤخر وإن عظمه الناس وقدموه، ولا يمنعنا من التحذير من ضلاله وبيان خطله وزيغانه؛ تعدد ألقابه أو عظم عمائمه وشهاداته!!

ذلك هو ميزاننا العادل المنزل من عند الله؛ وليس ما سواه من الموازين وإن عظّمهــا وقــدمها وضــخّمها مَنْ ضخّمها!!

وإن شئت أن تعــرف عظم شــأن هــذا المــيزان؛ فتأمــل منهاجنا الذي هو ثمــرة ميزاننــا.. ثم تأمــل منــاهجهم فإنهــا ثمرة موازينهم..

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أبو محمد المقدسي
ربيع الثاني 1422هـ